المبحث الثالث

أثر السياق القرآني النسقي

فِي الدلالة على الإيجاز والإطناب

ورد الإيجاز والإطناب بكثرة فِي القرآن الكريم، ولكل مصطلح منهما فائدة وغاية تجنى منه، وأهمها هي تأدية دلالة المعنى المطلوب من اللفظ. والإيجاز والإطناب يحتاج إليهما فِي جميع الكلام، ولكل واحد منهما موضع لا يفهم إلاّ به، ولا يليق بمكانه غيره وهذا من حسن نَسقه وتناسقه، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ويكون هَذَا بالاستقصاء، أي: استقصاء المعاني المطلوبة فِي الألفاظ المختارة، قصيدة (إيجاز) أو طويلة (إطناب)[1].

والإيجاز كما عرفه الرماني: «البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ»[2]. ويعد الإيجاز عند العرب هُوَ البلاغة؛ لأنَّه من أهم خصائص اللغة العربية[3]، لإيفاء المعاني المطلوبة من الألفاظ القليلة.

ومتى وضع الإيجاز فِي تركيب الآية وقع موقعه فِي رفع شأن الكلام فِي باب البلاغة والإعجاز القرآني، وَهُوَ بليغ بمقتضيات الأحوال واقتضاب الكلام، وأنّ جوهر الكلام ما حاق معناه، وثمنه ما أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقه، وأن يتلقى من القبول والتفاعل النفسي بأكمل ما استحقه، ولا يقع حسن الإيجاز ما لم يكن السامع عالماً بجهات حسن الكلام موقناً بأنّ المتكلم تعمدها، وَهَذَا ما حازه القرآن الكريم من الكلام الرفيع، الموجز

---

(١) ينظر: الصناعتين: ١٩٠.

(٢) النكت فِي إعجاز القرآن: ٧٤.

(٣) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ٩٩.

الوافي بدلالته[1].

وقسم علماء البلاغة الإيجاز إلى نوعين:

١- إيجاز القصر:

«وَهُوَ الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه»[2]، أو هُوَ تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف، مع القدرة على الإيصال بأقرب طريق مع وفائها بالغرض[3].

ومثاله، قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4]، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها، مع جواز الحكم بالعرف الصحيح[5]. وهذا الترتيب في نسق الكلمات زادها حُسناً وبهاءً وجلالاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[6]، إنّ هذه الألفاظ على إيجازه قَدْ دلّت عن معنى كثير وقصد ضروري من مقاصد الشريعة وأغراضها وَهُوَ الحفاظ على الحياة، لأنّ الإنسان إذا علم أنّه متى قَتل قُتل كَانَ ذَلِكَ زجراً له ورادعاً قويّاً على أن لا يقدم على القتل، «فارتفع القتل الذي هُوَ قصاص كثير من قتل بعضهم لبعض، فكان ارتفاع القتل حياة لهم»[7]، وإنّ هذه الآية

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٢٦.

(٢) البيان والتبيين: ١٣/٢.

(٣) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١٠٠؛ وينظر: والبلاغة الميسرة: ٢١٧.

(٤) سورة الأعراف: ٩٩.

(٥) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥١٧.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ١٧٩.

(٧) سر الفصاحة: ٢٠٩؛ وينظر: الإيضاح فِي علوم البلاغة: ١٨١/٣؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٩٨.

تضمنت سرّاً من أسرار الشريعة التي عليها مدار سعادة المجتمع الإنساني وبقائه وزيادة ذريته والحفاظ عليها، واحترام لمعنى الحياة واستغلالها للخير والعمل الصالح إلى أن يتوفاها الحي القيوم[1].

٢- إيجاز الحذف:

«وَهُوَ يكون بحذف شيء من العبارة لا يخل بالفهم، مع قرينة تُعين المحذوف»[2]، أو هُوَ «حذف بعض الكلام اكتفاءً بدلالة القرائن على ما حذف»[3]، وعند حذف لفظة من العبارة لا يخل بدلالة المعنى لوجود قرينة فِي سياق الآية تكمل بالمعنى وتعوض المحذوف وتفي بالمقصود.

ففي قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[4]، فالمحذوف فِي هذه الآية اسماً مضافاً هُوَ «فِي سبيل الله» ولم يخل حذف المضاف من الآية على دلالة المعنى المقصود، فكان سياق الآية فِي غاية البلاغة فِي إيراد المعنى المطلوب[5]. وهذا من تناسق ألفاظ الحذف كماً ونوعاً وناسب مقدار المحذوف عبارة الحذف وهذا الترتيب لا نجدهُ إلا في كتاب الله العظيم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[6]، فحذفت هنا جملة (فاختلفوا فبعث)، وعوض السياق بما يقوم دليلاً على المحذوف مع

---

(١) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ١٣٢/٢.

(٢) البلاغة الميسرة: ٥١٨.

(٣) البلاغة العربية: ٢٩/٢.

(٤) سورة الحجّ، من الآية: ٧٨.

(٥) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥١٨.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ٢١٣.

الإبانة والإفصاح[1]. وهذا الحذف في جملة (فاختلفوا) ناسق جملة ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً﴾ فهذا الترتيب العجيب وهذا التناسق من دلائل إعجاز هذا الكتاب المبهر.

أمّا الإطناب هُوَ «أن يكون اللفظ زائداً على أصل المراد»[2].

أو «هُوَ تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف الأوساط لفائدة تقويته وتوكيده»[3].

واقترن موضوع الإطناب مع موضوع الإيجاز عند علماء البلاغة، وذلك لأنّ فيها فوائد بلاغية جمَّة توضح عمل المصطلحين ومكانتهما فِي وضع العبارات ودلالاتها[4].

وثمَّة أسباب تدفع المتكلم على سلوك أسلوب الإطناب فِي كلامه منها تثبيت المعنى فِي نفس السامع أو المخاطب، ومنها توضيح المراد، ومنها التوكيد ودفع الإيهام، ومنها إيراد المقصود وتقويته[5].

فإن لم تكن فِي الزيادة فائدة يسمى (تطويلاً) أو (إسهاباً) إن كانت الزيادة غير متعينة، ويسمى (حشواً) إن كانت الزيادة متعينة، أمّا الإطناب فهو بلاغة لما فيه من تقبّل النفس له وعدم الملل والجزع من جمله[6]، وطول

---

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥١٩.

(٢) التعريفات: ٢٥.

(٣) البلاغة الميسرة: ٥٢١.

(٤) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١٠٢.

(٥) ينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ١٤٠؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢١.

(٦) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢١.

الكلام فيه فائدة وبيان إخراج للمعنى الذي يرسمه السياق وخاصة السياق القرآني فِي معاريض مختلفة وتفصيل له ليحقق للسامع الفهم ويستقر عنده[1].

والإطناب أقسامه كثيرة منها:

١- الإيضاح بعد الإبهام:

وَهُوَ أنّ المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذَلِكَ، ثم تمكن فيها فضل تمكن، وتستشعر به أكثر، ومن ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[2]، فبعد إبهامه وَهُوَ قضاء ذَلِكَ الأمر قام بإيضاحه وتفسيره وَهُوَ ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، وَهَذَا الإيضاح فيه فائدة وهي تفخيم الأمر وتعظيم له[3]، لأنّ ﴿أَنَّ دَابِرَ﴾ ردّاً على ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ أو بدلاً منه بوقوع القضاء عليها[4]. وهذا مما حددهُ السياق في النص القرآني ونسقه الجمالي.

٢- ذكر العام بعد الخاص:

وجودة الفائدة فِي هَذَا النوع من الإطناب، وَهُوَ التعميم وإفراد الأول بالذكر اهتماماً بشأنه[5] ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ

---

(١) ينظر: سر الفصاحة: ٢١١.

(٢) سورة الحجر: ٦٦.

(٣) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ٣٤٦/٢؛ وينظر: المثل السائر: ١٦٠/٢.

(٤) ينظر: تفسير الطبري: ٨٩/١٤؛ وينظر: معاني القرآن، للزجاج: ١٨٢/٣.

(٥) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١٠٤.

بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[1].

٣- ذكر الخاص بعد العام:

ويكون هَذَا النوع من الإطناب للتنبيه على فضله حتّى كأنّه ليس من جنسه[2]، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾[3]. إذ بعد ذكر الصلوات عامة ذكر ما خصصها بالأهمية والفضل وهي صلاة العصر مع فضلهن جميعهن لكن هذا التناسق في سياق الفضل والأهمية خصصها دون غيرها.

٤- التكرار:

وإطناب التأكيد إمّا يكون للإنذار، كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[4]، ووردت ﴿ ثُمَّ ﴾ دلالة على إنّ الإنذار الثاني أبلغ وأشد[5]، أو التكرار للطمأنينة على مجيء الفرج، قَالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[6]، والتأكيد لاستمالة المخاطب لقبول الخطاب وزيادة التنبيه[7]، قَالَ تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾[8].

---

(١) سورة نوح: ٢٨.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ٣٤٨/٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٤) سورة التكاثر، الآيتان: ٣-٤.

(٥) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ٣٤٩/٢.

(٦) سورة الشرح: ٥-٦.

(٧) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢٢.

(٨) سورة غافر: ٣٨-٣٩.

٥- الاعتراض:

وَهُوَ أن يأتي فِي أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين فِي المعنى بجملة معترضة أو أكثر لا محل لها من الإعراب، وقد تكون الكلمة أو الجملة إمّا للتنزيه[١]، كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[٢] فكلمة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ اعتراضية جاءت لتنزيل الله تعالى من أن يكون له ولد. أو يكون الاعتراض تأكيداً وتسديداً للكلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٣]، فـ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضية لا محل لها من الإعراب جاءت لتسديد الكلام[٤].

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٢٣.

(٢) سورة النحل: ٥٧.

(٣) سورة الواقعة: ٧٦.

(٤) ينظر: النظم القرآني فِي تفسير الدر المصون: ١١٠.